الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

يقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، يقول في كتابه [**القواعد الحِسَان المتعلقة بتفسير القرآن**]:

القاعدة السادسة:

في طريقةِ القرآن في تقريرِ التوحيد ونفي ضدِّه

يكادُ القرآنُ أنْ يكونَ كلُّه لتقريرِ التوحيد ونفي ضدِّه، وأكثرُ الآيات يُقرِّرُ الله فيها توحيدَ الإلهية، وإخلاصُ العبادةِ لله وحدهُ لا شريكَ، ويُخبِرُ أنَّ جميعَ الرسل تدعوا قومها إلى أنْ يعبدوا الله ولا يُشركوا بهِ شيئًا، وأنَّ الله تعالى إنَّما خلقَ الجنَّ والإنس ليعبدوهُ، وأنَّ الكتبَ والرسلَ اتفقتْ على هذا الأصل الذي هو أصلُ الأصولِ كُلِّها، وأنَّ مَنْ لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاصُ العملِ لله فعملهُ باطل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٨٨]، ويدعوا العبادَ إلى ما تقرَّرَ في فِطَرِهِمْ وعقولهم مِنْ أنَّ المُتفرِّدَ بالخلق والتدبير، والمتفرِّدِ بالنِّعَمِ الظاهرة والباطنة: هو الذي لا يستحقُّ العبادة إلَّا هو، وأنَّ سائرَ الخلقِ ليسَ عندهم خلقٌ، ولا نفعٌ، ولا دفعٌ، ولنْ يُغنُوا عَنْ أحدٍ مِنَ الله شيئًا.

ويدعوهم أيضًا إلى هذا الأصل بما يَتَمدحُ بهِ، ويُثني على نفسهِ الكريمة مِنْ تفرُّدِهِ بصفاتِ العَظَمةِ والمجد، والجلالِ والكمال، وأنَّ مَنْ لهُ هذا الكمال المُطلق الذي لا يُشاركهُ فيهِ مُشارك: أحقُّ مَنْ أَخْلَصتْ لهُ الأعمال الظاهرة والباطنة، ويُقرِّرُ هذا التوحيد بأنَّهُ هو الحاكمُ وحدهُ، فلا يَحْكمُ غيرهُ شرعًا ولا جزاءً، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤٠].

وتارةً يُقرِّرُ هذا بذكرِ محاسنِ التوحيد، وأنَّهُ الدينُ الوحيدُ الواجبُ شرعًا وعقلًا وفِطْرةً على جميعِ العبيد، ويذكرُ مساوئ الشِّركِ وقُبْحِهِ، واختلالِ عقولِ أصحابِهِ، بعدَ اختلالِ أديانهم، وتقليبِ أفئدتهمْ، وكونهم في شكٍّ وأمرٍ مَريج.

وتارةً يدعو إليهِ بذكرِ ما رتَّبَ عليهِ مِنَ الجزاءِ الحَسنْ في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدُّورِ الثلاث، وما رَتَّبَ على ضِدِّهِ من العقوباتِ العاجلة والآجلة، وكيفَ كانت عواقبُهم أسوأُ العواقبِ وشرِّها.

وبالجملة: فكلُّ خيرٍ عاجلٍ وآجل؛ فإنَّه مِنْ ثمراتِ التوحيد، وكلُّ شرٍّ عاجلٍ وآجل؛ فإنَّه مِنْ ثمراتِ ضِدِّهِ، والله أعلم.

هذه القاعدة السادسة من القواعد التي جمعها الإمام الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، وهي في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده، وضده هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

والتوحيد هو أعظم شيءٍ أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به في القرآن الكريم، وضده هو أعظم شيءٍ نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنه في القرآن الكريم، وهو أيضًا أول شيءٍ أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به عباده، ونهاهم عنه، ويأتي دائمًا وأبدًا في مقدمة الأوامر، يأتي التوحيد في مقدمة الأوامر، ويأتي ضده -وهو الشرك بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ- في مقدمة النواهي في آياتٍ كثيرة في القرآن الكريم تكون مشتملة على جملةٍ من الأوامر والنواهي تجدها مبدوءة بالأمر بالتوحيد، والنهي عن ضده وهو الشرك بالله؛ كقوله سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٢٣]؛ ثم ذكر جملةً من الأوامر والنواهي، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٦]؛ ثم ذكر جملةً من الأوامر والنواهي، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة الأنعام، من الآية:١٥١]؛ ثم ذكر جملةً من الأوامر والنواهي.

فطريقة القرآن في ذكر الأوامر والنواهي أن يبدأ بالتوحيد، أن يُبدأ فيه بالتوحيد والنهي عن ضده وهو الشرك، وبهذا يُعلم أن التوحيد هو أعظم شيءٍ أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به، وأن ضده -وهو الشرك- هو أعظم وأخطر شيءٍ نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عباده عنه.

ولما كان التوحيد بهذه المكانة وضده -وهو الشرك بالله- بهذه الخطورة، كانت براهين تقرير التوحيد وبراهين بطلان الشرك أكثر البراهين في القرآن الكريم، ودلائل تقرير التوحيد أكثر الدلائل، ودلائل إبطال ضده وهو

الشرك أكثر الدلائل في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الأمر كلما كان أعظم، والحاجة إليه أمس؛ كانت براهينه ودلائله وسبل تقريره أكثر من غيره، وهذه سنة ماضية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا الكون: أن الأمر كلما كانت الحاجة إليه أمس والضرورة إليه ألزم وأشد؛ تكون دلائله ووسائل معرفته وطرائق تقريره أعظم من غيره.

واعتبر هذا في حاجيات الناس؛ كالهواء، والماء، والطعام، لما كانت حاجة الناس إلى الهواء أشد من حاجتهم إلى الماء كان الوصول إلى الهواء أيسر من الوصول إلى الماء، ولما كانت الحاجة إلى الماء أشد من الحاجة إلى الطعام كان الوصول إلى الماء أيسر من الوصول إلى الطعام.. ولما كان التوحيد أعظم من الطعام والشراب والماء واللباس وغير ذلك من حاجيات الناس؛ لأن به حياتهم الحقيقية في الدنيا والآخرة، لما كانت الحاجة إليه أعظم كانت وسائل تقرير التوحيد وذكر براهينه ودلائله أعظم من غيره.

ولهذا بُسطت براهين التوحيد ودلائله في القرآن الكريم وفي سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسطًا لم يبسطه أي أمرٍ آخر من أمور الدين؛ لأن التوحيد هو أعظم شيء، ولهذا كان التوحيد أعظم شيءٍ بُيِّن في القرآن، وأيضًا كان التوحيد أعظم شيءٍ ذكرت دلائله وبراهينه ونوعت حججه في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكذلك إبطال ضده وهو الشرك، ومن يقرأ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجد أن أكثر البراهين والدلائل في القرآن الكريم على إقامة التوحيد وإبطال الشرك، حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كلامٍ له عظيمٌ في هذا الباب في خاتمة كتابه [مدارج السالكين]، قال: "القرآن كله في تقرير التوحيد"؛ لأن القرآن إما أمرٌ ونهي، وهذه مكملات التوحيد ومتمماته، وإما ثوابٌ وجزاء؛ وهذا ثواب أهل التوحيد وجزاء من خالفه، أو ذكر نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأوليائه من أهل التوحيد وعقابه لأعدائهم من أهل الشرك والتنديد، فالقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير التوحيد، وإقامة براهين التوحيد وحججه.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في هذه القاعدة العظيمة أراد أن يلفت النظر إلى بعض الدلائل والبراهين على توحيد الله ووجوب إخلاص الدين له، والتحذير من ضده وهو الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فذكر طرفًا يسيرًا وشيئًا قليلًا من براهين التوحيد الواردة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ منبهًا بما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى على ما لم يذكره؛ لأن القرآن كما تقدم مليء بالبراهين والدلائل على توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهنا أيضًا يقال: من لم يعرف التوحيد الذي هو أعظم مطالب القرآن وأكبر مقاصده، وأجلُّ غاياته، وأكثر ما جاء فيه هو براهينه ودلائله من لم يعرف التوحيد فما عرف القرآن الكريم! وإن قرأ حروف القرآن؛ لأن التوحيد

هو أعظم مقاصد القرآن، وأجل غاياته، وأنبل أهدافه، ولا تكاد تمر بسورة من سور القرآن إلا وفيها تقرير التوحيد، وإثبات حججه وبراهينه، وبيان دلائله وبيناته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(يكادُ القرآنُ أنْ يكونَ كلُّه لتقريرِ التوحيد)**؛ وهذه مسألة أوضحها بوفاء العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في آخر كتابه [مدارج السالكين]، وبين هناك أن القرآن كله في تقرير التوحيد، وأن كل آيةٍ فيه هي في التوحيد؛ إما في عرض التوحيد وبيانه، أو التحذير من ضده، أو ذكر مكملاته ومتمماته، أو ذكر نواقصه ومضعفاته، أو ذكر ثواب أهله وجزاءهم، أو عقاب من نكل عن التوحيد وخالفه، فالقرآن يكاد أن يكون كله في تقرير التوحيد.

والتوحيد هذه مصدر للفعل (وَحَّدَ، يُوَحِّدُ، تَوْحِيدًا)، وهو أصلٌ يدل على الإفراد، إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بخصائصه وحقوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خصائصه جَلَّ وَعَلَا من الأسماء الحسنى، والصفات العظيمة، والأفعال الجليلة، وأيضًا خصائصه من إثبات ربوبيته وملكه، وتدبيره للمخلوقات، وتفرده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بالتصرف والعطاء والمنع والخفض والرفع، وحقوقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يُفرد وحده بالعبادة، وأن يُخصَّ بالطاعة والذل والخضوع، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المعبود بحق، ولا معبود بحقٍّ سواه، وهو يقوم على أركانٍ ثلاثة، التوحيد يقوم على أركانٍ ثلاثة:

- الإيمان بوحدانية الله في ربوبيته.
- والإيمان بوحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أسمائه وصفاته.
- والإيمان بوحدانية الله في ألوهيته.

ومراد الشيخ هنا بالتوحيد: توحيد العبادة؛ لأنه هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم؛ لأنهم كانوا يقرون بأن الرب هو الله، وأنه الخالق، الرازق، المنعم، المتصرف، يقرون بذلك، ويؤمنون بأنه سبحانه هو المتفرد بخلقهم وخلق السموات والأرض، وإيجاد الكائنات يقرون بذلك؛ لكن الخصومة كانت بينهم وبين الأنبياء في توحيد العبادة.

لما دعوهم أنبياء الله ورسله إلى إفراد الله بالعبادة وإخلاص التوحيد له؛ قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [سورة ص، من الآية:٥]، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا

لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونٖ﴾ [سورة الصافات، من الآية:٣٥-٣٦]، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ [سورة ص، من الآية:٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فالخصومة التي كانت بينهم وبين الأنبياء في توحيد العبادة، ولهذا كثر في القرآن ذكر دلائل وبراهين توحيد العبادة؛ لأن الخصومة فيه، أما توحيد الربوبية مركوزٌ في الفطر ولا ينازعون فيه، بل هم مقرون، إذا سئلوا: مَن الخالق لهم؟ مَن الخالق للسموات؟ مَن الخالق للأرض؟ مَن الخالق للمخلوقات؟ يقولون: الله، وهذا فيه آياتٌ كثيرة في كتاب الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

بل إنهم يعتقدون أن أصنامهم وأوثانهم والتي يعبدون من دون الله يعتقدون أنها مملوكة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تحت تصرُّف الله وتدبيره، ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك)، تملكه أنت يا الله، أما هو لا يملك شيئًا؛ هكذا يعتقدون.

فلم يكونوا يخاصمون وينازعون في الربوبية، بل كانت الخصومة في توحيد العبادة، ولهذا كثر في القرآن الكريم تقرير توحيد العبادة، وذكر براهينه ودلائله بشكل واسع وتقريرٍ مستفيض لم يكن لأمرٍ آخر من الأمور التي قررت وذكرت براهينها في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

وقوله: (**ونفي ضدِّه**)؛ ضده هو الشرك بالله، والشرك هو التسوية، الشرك بالله هو تسوية غير الله بالله في شيءٍ من خصائص الله وحقوقه سبحانه، ولهذا إذا أُدخل المشركون النار يوم القيامة يقولون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الشعراء، من الآية:٩٧-٩٨]؛ فالشرك هو تسوية غير الله بالله في شيءٍ من خصائص الله، وحقوقه سبحانه، فمن سوَّى غير الله بالله في الخلق أو الرزق، أو العطاء، أو المنع، أو الخفض، أو الرفع، أو سوَّى غير الله بالله في شيء من خصائصه في أسمائه الحسنى، كمن يثبت لغير الله علمًا اختص الله به، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [سورة النمل، من الآية:٦٥]؛ أو أثبت له شيئًا من خصائص الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في أسمائه سبحانه وصفاته؛ فقد أشرك بالله العظيم.

وكذلك من صرف لغير الله شيئًا من حقوق الله الخاصة به من العبادة، والدعاء، والذل، والخضوع، والرجاء، والتوكل، والذبح، والنذر، وغير ذلك فمن أعطى غير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ شيئًا من خصائص الله؛ فقد جعل ذلك الذي أعطاه شيئًا من خصائص الله شريكًا لله عَزَّوَجَلَّ، ويكون بذلك قد وقع في أعظم جرمٍ وأكبر ذنب.

ثم أخذ يبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ طريقة القرآن في تقرير هذا التوحيد ونفي وإبطال ضده، قال: (**يكادُ القرآنُ أنْ يكونَ كلُّه لتقريرِ التوحيد ونفي ضدِّه، وأكثرُ الآيات يُقرِّرُ الله فيها توحيدَ الإلهية، وإخلاصُ العبادةِ لله وحدهُ لا شريكَ له**)؛ يقرر فيها أي أن أكثر آيات القرآن في تقرير العبادة والإخلاص لله جَلَّوَعَلَا، مثل قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة البينة، من الآية:٥]، وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٣]، وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [سورة النساء، من الآية:٣٦]، وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥٦]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١٣]، وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٥٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة التي فيها الأمر بالتوحيد.

وقد جاء عن ابن عباس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن كل أمرٍ بالعبادة أمرٌ بالتوحيد، أن كل أمرٍ بالعبادة في القرآن فهو أمرٍ بالتوحيد؛ لأن العبادة لا تكون عبادةً صحيحة مقبولة مرضية عند الله إلا إذا كانت قائمة على التوحيد، كما أن الصلاة لا تكون صلاةً مقبولةً مرضية عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إلا إذا كانت على طهارة؛ فكذلك العبادة لا تكون عبادةً مقبولةً عند الله إلا إذا كانت قائمة على التوحيد، من صلى بغير طهارة لم تُقبل صلاته؛ ومن عبد الله بغير توحيدٍ لم تُقبل عبادته، ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [سورة التوبة، من الآية:٥٤]؛ فالكفر بالله والشرك مانعٌ من قبول الأعمال.

فهي لا تكون مقبولة إلا بالتوحيد؛ ولهذا العبادة ليست عبادةً صحيحة مقبولة إلا إذا قامت على التوحيد، كما أن الصلاة ليست صلاةً صحيحةً مقبولةً عند الله إلا إذا كانت على طهارة.

فإذًا أكثر شيءٌ قُرر وبُين وأُمر به في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ ودُعي إليه هو توحيد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وأيضًا أعظم شيءٍ نُهي عنه في القرآن الكريم هو ضده وهو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (**ويُخبِرُ أنَّ جميعَ الرسل تدعوا قومها إلى أنْ يعبدوا الله ولا يُشركوا بهِ شيئًا**)؛ هذا أمرٌ اتفقت عليه نبوات جميع الأنبياء، والأنبياء من أولهم إلى آخرهم دعاةٌ إلى توحيد الله، قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ [سورة الزخرف، من الآية:٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ

قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [سورة الأحقاف، من الآية:٢١]، ﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾؛ الأنبياء من قبل ومن بعد كلهم دعاةٌ إلى ماذا؟ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٢٥].

وفي الآيات التفصيلية لدعوة الأنبياء تجد دعوة كل نبي مبدوءة بقوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [سورة المؤمنون، من الآية:٢٣]، دعوة كل نبي مبدوءة بـ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، ولهذا فإن أول كلمةٍ تقرع أسماع الأقوام من أنبيائهم هي الدعوة إلى التوحيد، والدعوة إلى عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهذا أمر متفق عليه بين جميع الأنبياء.

ولهذا جاء في حديث صحيح أن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال: «**نحن الأنبياء أبناء علات**»، العلة هي الزوجة على الزوجة، أو الجارة يقال لها: علة من العل وهو الشرب والنهل، وبعض الناس يسميها الضرَّة، وكره ذلك بعض السلف أن تُسمى الزوجة على الزوجة: ضرَّة، كره ذلك بعض السلف وقال: هي لا تضر ولا تنفع، لا تملك ضرًا ولا نفعًا، الضر والنفع، والعطاء والمنع بيد الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فتسميتها: ضرة كرهه بعض السلف؛ لأنها لا تملك ذلك، أحيانًا تكون الزوجة على الزوجة بركة على الزوجة الأولى، بركة عليها في المال، وفي الرزق، وفي معاملة الزوج، وفي الذرية.

أحيانًا بعض الزوجات تتوقف عن الإنجاب لا تُنجب، ثم إذا أخذ زوجها عليها حملت، وأنجبت الزوجتان معًا، فلِمَ تسمى ضرة؟ ولهذا كره بعض السلف أن تُسمى ضرة، قال: بل هي جارة، والجوار مأمورٌ بالإحسان إليه، ولكن إذا سميت: ضرة وفهمت الزوجة الأولى أن هذه ضرة لها فإن هذا الاسم أو هذا اللقب التي أُعطيت إياه يولد عداوة، ويوجد شيئًا في النفوس، ولهذا لا يصلح أن تُسمى: ضرة، بل يقال: جارة والجوار مأمورٌ بالإحسان إليه. «**ولا يزال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**»، فتسميتها جارة هذا يعطي معنى من الإحسان، واللطف، وطيب المعاملة، وحُسن العشرة بخلاف التسمية التي هي ضره؛ هذا قد يولد في النفوس أشياء وأشياء من سوء المعاملة.

قال: «**نحن الأنبياء أبناء علات**»؛ أي العلة كما عرفنا هي الزوجة على الزوجة، «**ديننا واحد، وأمهاتنا شتى**»، ديننا واحد؛ يعني عقيدتنا واحدة، كلنا دعاة إلى توحيد الله، كلنا دعاة إلى إخلاص العمل لله، كلنا دعاة إلى التحذير من اليوم الآخر والوقوف بين يدي الله، الأنبياء كلهم نذر، مبشرين ومنذرين، مبشرين بالتوحيد، ومنذرين من الشرك، مبشرين بالجنة لمن كان من أهل التوحيد، ومنذرين من النار لمن كان من أهل الشرك؛ كلهم على ذلك.

قال: «**ديننا واحد**»؛ يعني عقيدتنا واحدة، «**وأمهاتنا شتى**»؛ أي شرائعنا قد تختلف من نبي إلى آخر، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة، من الآية:٤٨]، فقد تختلف الشريعة من نبي إلى آخر، أما العقيدة واحدة، من أول نبي بعثه الله إلى آخر نبي عقيدة واحدة، ولهذا يقول العلماء: العقيدة لا يدخلها نسخ لا في شريعة الأنبياء، ولا في شريعة النبي الواحد، العقيدة لا يدخلها نسخ، النسخ يدخل الأحكام، أما العقيدة لا يدخلها النسخ، لا في شرائع الأنبياء ولا في شريعة النبي الواحد، فالأنبياء كلهم دعاةٌ إلى توحيد الله، وإخلاص العمل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن نقض التوحيد خرج عن دين الأنبياء أجمعين، وخرج عن ملة الأنبياء أجمعين.

قال: (**وأنَّ الله سبحانه إنَّما خلقَ الجنَّ والإنس ليعبدوهُ**)؛ بيَّن ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات، من الآية:٥٦]، وهذا فيه أن الغاية من خلق الثقلين -وهما الجن والإنس- عبادة الله، وفي هذه الآية أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه فعل الأول -وهو الخلق- ليفعلوا هم الثاني -وهو العبادة-، فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ﴾؛ الخلق هو فعله هو، هو الذي خلق هذه المخلوقات وأوجدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد أن لم تكن، وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ هذا فعل الناس الذي أمرهم به وخلقهم لأجله.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي إلا ليقوموا بعبادتي وتوحيدي وإخلاص الدين لي، هذا هو معنى الآية، ففيها أن الحكمة من خلق الناس هو التوحيد.

قال: (**وأنَّ الكتبَ والرسلَ اتفقتْ على هذا الأصل الذي هو أصلُ الأصولِ كُلِّها**)؛ فالتوحيد اتفقت عليه جميع الكتب وجميع الرسل، ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ [سورة النحل، من الآية:١-٢]؛ أي بالوحي، سمى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الوحي روحًا؛ لأن به حياة القلوب، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [سورة النحل، من الآية:٢]؛

فذكر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن الكتب والرسل كلهم متفقون على الدعوة إلى توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والإنذار من ضده وهو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال: (**وأنَّ مَنْ لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاصُ العملِ لله فعملهُ باطل**)؛ أي لم يعتقد هذه العقيدة، ويؤمن بهذا التوحيد، ويُخلص عمله لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ عمله باطل، ولو كان عمله أكثر العمل، فإن العمل وإن كثر إن لم يقم على توحيد الله شأنه يوم القيامة كما قال الله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية:٢٣]، الأعمال الواسعة الكثيرة المتنوعة الطويلة العديدة إذا لم تكن قائمةً على توحيد الله يكون شأنها يوم القيامة هباء، وقيل في معنى: (الهباء) الذرات الصغيرة جدًا التي تُرى في شعاع الشمس، قيل في معنى الهباء هذا، وقيل غير ذلك، فمن لم يدن بهذا الدين ويُقم عمله على التوحيد لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى والإخلاص له؛ لا يقبل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى منه عمل، وإن كثر عمله.

قال: (**والدليل**: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٥])؛ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الزمر، من الآية:٦٥-٦٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: (﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام، من الآية:٨٨])؛ فهذا دليل على أن التوحيد إذا انتفى بطل العمل، وحبط، ولم يكن مقبولًا عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قال: (**ويدعوا العبادَ إلى ما تقرَّرَ في فِطَرِهِمْ وعقولهم مِنْ أنَّ المُتفرِّدَ بالخلق والتدبير والمتفرِّدِ بالنِّعَمِ الظاهرة والباطنة: هو الذي لا يستحقُّ العبادة إلَّا هو**)؛ وهذا كثير في القرآن الكريم، آيات كثيرة يستدل بها تَبَارَكَوَتَعَالَى على توحيد العبادة، ووجوب إخلاص الدين له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بالربوبية، ومعاني الربوبية، وأنه سبحانه وحده الذي تفرد بالخلق، والرزق، والعطاء، والمنع، وأن من هذا شأنه هو الذي يجب أن يُخصَّ بالعبادة ويُفرد بالتوحيد.

مثل قوله جَلَّوَعَلَا في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢١-٢٢]، قال ابن عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا وغيره: أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، أنتم تعلمون أنه وحده الذي تفرد بخلق السماء، خلق الأرض، إنزال المطر، إخراج النبات، إذا سُئلتم من الخالق لهذه الأشياء؟ تقولون: الله، فإذًا لا تجعلوا لله أندادًا وأنتم

تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه طريقة من طرائق القرآن في تقرير التوحيد يذكر ربوبيته سبحانه، وتفرده بخلق الناس، خلق المخلوقات، خلق الأولين والآخرين، خلق السموات والأرضين، خلق الجبال، الأشجار، السموات، الأرض، إلى غير ذلك ويستدل بذلك على وجوب إفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة.

وهذا التقرير جاء في آيات بشكلٍ موجزٍ ومختصر، وجاء فيه آياتٍ بشكل مبسوطٍ ومطول، ومما اختصر فيه هذا المعنى قول الله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء، من الآية:٩٢]، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾؛ أي أنا الذي تفردت بالربوبية والخلق، لا شريك لي في ذلك، ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾؛ أي أفردوني وحدي بالعبادة، كما أنه لا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الربوبية؛ فيجب أن يُفرد وحده تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعبادة.

ومن بسط ذلك مطولًا اقرأ مثلًا سورة النحل، وهي تعرف عند أهل العلم بسورة النعم؛ لكثرة ما عدد فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من نعمه على عباده، وبسط عد النعم في صفحات في هذه السورة، ثم في تمام عده لهذه النعم قال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [سورة النحل، من الآية:٨٣]، قال قبل كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٨١]، ثم قال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة النحل، من الآية:٨٣]، فإذًا هذه النعم عُدِّدت لتقرير التوحيد، وذكر البراهين والدلائل على وجوب إفراد العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا اقرأ في أول سورة الرعد، ذكر جَلَّ وَعَلَا خلقه للسموات وخلقه للأرض، وخلقه للعرش، وأيضًا خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنواع الأشجار، النخيل، والزروع، والثمار، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحاط علمًا بكل شيء، ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد، من الآية:٨]، عدد جَلَّ وَعَلَا ثم ذكر السحاب، والرعد، وإلى غير ذلك ثم قال في تمام ذلك جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٤]، ﴿لَهُۥ﴾؛ يعني الخالق لهذه الأشياء المتفرد بإيجادها ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، ثم استمر أيضًا في ذكر البراهين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الرعد، من الآية:١٦].

فالشاهد: أن القرآن تنوعت فيه البراهين والدلائل على تقرير التوحيد، ومن ذلكم ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لربوبيته، وتفرده بالخلق، والرزق، والإنعام، والعطاء، والخفض، والرفع إلى غير ذلك كل ذلكم يُعدُّ من البراهين الواضحات، والدلائل البينات على وجوب إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعبادة.

قال: (**وأنَّ سائرَ الخلقِ ليسَ عندهم خلقٌ، ولا نفعٌ، ولا دفعٌ، ولنْ يُغنُوا عَنْ أحدٍ مِنَ الله شيئًا**)؛ هذا أيضًا من الطرائق التي فيها قُرر التوحيد: أن من يُدعى من غير الله لا يملك شيئًا لا لنفسه فضلًا أن يملك ذلك لغيره، لا يملك لنفسه نفعًا، ولا عطاءً، ولا منعًا، ولا حياةً، ولا موتًا، ولا نشورًا، فضلًا عن أن يملك شيئًا من ذلك لغيره.

ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية:٥٦]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [سورة فاطر، من الآية:١٣-١٤] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سورة سبأ، من الآية:٢٢-٢٣]، قال بعض أهل العلم عن هذه الآية الكريمة من سورة سبأ، قال: هذه الآية قطعت الشرك من عروقه، واجتثت شجرة الشرك من أصولها ولم تبقي لمشرك متعلق؛ لأن أي حجة تخطر ببال من يشرك بالله قطع في هذه الآية، واجتثت من أصلها في هذه الآية، وبيان ذلك أن من يُدعى يستحق أن يُدعى لو كان مالكًا مُلكًا استقلاليًا ولو لشيءٍ قليل في هذا الكون، فهل يوجد أحدٌ غير الله يملك في هذا الكون ولو ذرة واحدة ملكًا استقلاليًا دون أن يكون الله هو الذي ملكه إياه؟ هل يوجد أحد؟ حاشا وكلا. ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ليس هناك من يملك، فإذا كان لا يملك ولا مثقال ذرة في السموات والأرض هناك أمرٌ آخر إن وُجد استحق أن يُدعى، ألا وهو أن يكون عنده مع المالك شيء من المشاركة في الملك، ولو في قدر يسير، فإذا وُجد من هو مُشارك ولو في شيءٍ يسير في هذا الكون استحق أن يُدعى لهذه الشركة، فأبطل الله ذلك، أبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

ذلك، قال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ ﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي الذين يدعون من دون الله. ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي السموات والأرض. ﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ من مشاركة، ليس لأحدٍ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مشاركة في السموات ولا في الأرض لا في قليلٍ ولا في كثير، فهو المتفرد الأحد، الواحد، الفرد، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا شريك له، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ إذًا لا مالك ولا شريكًا للمالك هناك احتمال ثالث إن وُجد استحق من وُجد فيه ذلك أن يُدعى، ألا وهو أن يكون عوينًا للمالك ويحتاج إليه المالك، وظهيرًا له، فإن وُجد أحدٌ بهذه الصفة استحق أن يُدعى لكونه عوينا، وظهيرًا، ومعينًا، ومساعدًا، ووزيرًا، فأبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك، قال: ﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي الله. ﴿مِنْهُم﴾؛ أي الذين يدعون من دونه. ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي من عوين، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي ليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عوينٌ أو مساعد أو ظهيرٌ؛ فإذًا هذا الأمر الثالث يُبطل الشرك والتعلق بغير الله.

إذًا لا مالك، ولا شريكًا للمالك، ولا عوينًا للمالك، هناك أمرٌ رابع -إن وُجد- من وُجد فيه استحق أن يُدعى؛ فأبطله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا وهو الشفاعة الابتدائية: أي أن يشفع عند المالك بدون إذنه، فهل يملك أحد أن يشفع لأحد عند الله بدون إذن الله؟ أبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ فأبطلت هذه الآية كل ما يتعلق به من يُشرك بالله، واجتثت -كما قال العلماء- شجرة الشرك من عروقها، واقتلعتها من أصولها، فلم يبقى لمشركٍ متعلق.

فهذا من طرائق القرآن في تقرير التوحيد أن يُبين أن من يدعون من دونه ليس عندهم شيء، ولا يملكون شيء، ولا بيدهم شيء، الأمر كله بيد الله، بل قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن لنبيه محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [سورة آل عمران، من الآية:١٢٨]؛ فالأمر كله بيد الله هو المُعطي، هو المانع، هو الخافض، هو الرافع، هو القابض، هو الباسط، هو المُعطي، هو المانع، هو المعز، هو المذل الأمر بيده جَلَّ وَعَلَا، فهذا مما قُرر وبُين في القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ جدًا.

قال: (**ويدعوهم أيضًا**)؛ أي إلى هذا التوحيد. (**بما يَتمدحُ بهِ، ويُثني على نفسهِ الكريمة مِنْ تفرُّدِهِ بصفاتِ العَظَمةِ والمجد، والجلالِ والكمال، وأنَّ مَنْ لهُ هذا الكمال المُطلق الذي لا يُشاركهُ فيهِ مُشارك: أحقُّ مَنْ أَخْلَصتْ لهُ الأعمال أحق مَنْ أُخْلِصَتْ لهُ الأعمالُ الظاهرة والباطنة**)؛ وهذا أيضًا من طرائق القرآن في تقرير

التوحيد، يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسمائه الحسنى وصفاته العُليا الدالة على جلاله وكماله ومجده وعظمته؛ مبينًا أن هذه العظمة والمجد والجلال والكمال دليلٌ على أنه هو المستحق لأن يُفرد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده بالعبادة.

واقرأ مثالًا على ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:٢٥٥]، فهذه الآية العظيمة هي أعظم آيةٍ في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهذا جاء في [صحيح مسلم] أن النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال لأُبي بن كعب وهو من حفَّاظ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قال له: «**أي آية معك من كتاب الله أعظم؟**» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**يا أُبي! أي آية معك من كتاب الله أعظم؟**» قال: قلت: آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾؛ قال: فضرب بيده على صدري، وقال: «**ليهنك العلم يا أبا المنذر**»؛ أي هنيئًا لك هذا العلم العظيم الذي ساقه الله لك وأكرمك به، فهذه أعظم آية في القرآن.

هذه الآية العظيمة قائمة على تقرير التوحيد، وعظمتها من عظمة التوحيد الذي أُخلصت لبيانه، وأُفردت لتقريره، صُدِّرت هذه الآية بـ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ وهذا هو توحيد العبادة الذي خُلق الخلق لأجله، وأُوجدوا لتحقيقه، ثم ذُكرت البراهين برهانًا يتلوه برهان، فذُكر في هذه الآية من براهين التوحيد أكثر من عشرة براهين، هذه الآية وحدها ذُكر فيها من براهين التوحيد ذُكر فيها أكثر من عشرة براهين، وذُكر فيها من أسماء الله الحُسنى خمسة أسماء دالة على عظمة الله، وأنه الله الذي لا إله إلا الله، ولا معبود بحقٍّ سواه، وذُكر فيها من صفات الله الدالة على كماله وجلاله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يزيد على العشرين صفة، فيها أكثر من عشرين صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفيها خمسة أسماء حُسنى لله جَلَّ وَعَلَا، وفي أكثر من عشرة براهين على توحيد الله جَلَّ وَعَلَا.

أيضًا اقرأ خواتيم سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر، من الآية:٢٢-٢٤]؛ أيليق بعاقل أن يتجه إلى غيره سبحانه بالدعاء، والرجاء، والطمع، والسؤال، والرغبة، والرهبة؟!

ولهذا وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من يُشرك به بأنه لا يعقل، أين عقل من يدعوا من لا يملك شيئًا. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [سورة الأعراف، من الآية:١٩٤]؛ يدعو عبدًا مثله ومخلوقًا مثله لا يملك لنفسه نفعًا ولا عطاءً ولا منعًا، ويترك عبادة الرب العظيم، والخالق الجليل الذي بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَى أزِمَّة الأمور.

إذًا من براهين التوحيد ودلائله وحُججه في كتاب الله؛ ذكر أسماء الله الحسنى، وصفاته العُليا سبحانه، قال: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة، من الآية:١٦٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [سورة طه، من الآية:٩٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة الإسراء، من الآية:١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [سورة طه، من الآية:٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعا صاحبي السجن إلى التوحيد دعاهم إليه ببراهين عديدة منها هذا البرهان، قال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٣٩-٤٠]، الذي يُدعى من دون الله هي أسماء سُميت، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلى المستحق لأن يفرد وحده بالذل، والخضوع، والدعاء، والرجاء؛ فإذًا هذا من براهين التوحيد ودلائله المقررة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: (**ويُقرِّرُ هذا التوحيد بأنَّهُ هو الحاكمُ وحدهُ، فلا يَحْكمُ غيرهُ شرعًا ولا جزاءً**)؛ ومن أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكيم، ومن أسمائه الحكم، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الله هو الحَكَم وله الحُكم**»، فهو جَلَّ وَعَلَا الحكيم، وهو جَلَّ وَعَلَا الحكم الذي له الحكم، الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، والحكم أيضًا الجزائي من ثوابٍ وعقاب، كل ذلكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن براهين التوحيد كونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحَكم الذي لا شريك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحُكم، ولهذا قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعوته لصاحبي السجن قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤٠]، وهذه القصة قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحبي السجن ينبغي أن يستفيد منها كل مشتغلٍ بالدعوة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه لما أُدخل السجن ظلمًا وزورًا، كانت حياته في السجن أطيب حياة

عبودية لله، وحُسن معاملة للناس، وحُسن معاشرة، رأوا فيه الأخلاق الجميلة، رأوا فيه الآداب الكاملة الفاضلة، ارتاحوا إليه، فكان أن اثنين ممن معه في السجن رأيا رؤيا، فأرادا منه أن يعبرا لهما الرؤيا. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٣٦-٤٠]، انتهى درس التوحيد.

لما سألاه استغلها فرصة وأعطاهما درسًا متكاملًا وافيًا في التوحيد ثم عبَّر الرؤيا بعد ذلك، قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤١]؛ فلم يعبِّر لهما الرؤيا إلا بعد أن شرح لهما التوحيد شرحًا وافيًا، ولهذا نُلاحظ أنه مر معنا فيما قرره عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من براهين التوحيد عدة براهين يُستفاد منها في تقرير التوحيد.

من ضمنها هذا البرهان الذي أشار إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو: أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الحاكم وله الحُكم، ولهذا قال: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة يوسف، من الآية:٤٠].

ولهذا يُقال لكل مشرك: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [سورة المائدة، من الآية:٥٠]، الحُكم لله، وحكم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على عباده هو أن يخلصوا العبادة له، وأن يفردوه جَلَّ وَعَلَا بالذل والخضوع والانكسار.

قال: (**وتارةً يُقرِّرُ هذا بذكرِ محاسنِ التوحيد، وأنَّهُ الدينُ الوحيدُ الواجبُ شرعًا وعقلًا وفِطْرةً**)؛ وهذا أيضًا كثيرًا ما يأتي في القرآن الكريم، يذكر الله عَزَّوَجَلَّ محاسن التوحيد، وفضائله، وثماره، وآثاره، وعواقبه الطيبة، وثماره على أهله في الدنيا والآخرة، وما يترتب عليه من السعادة في الدنيا والآخرة، وما يترتب عليه من الحياة المطمئنة في الدنيا، والثواب العظيم يوم القيامة، وما يترتب عليه من الأمن والأمان والتمكين والرفعة، إلى غير ذلك من

الأمور التي بُسطت وبُينت في آياتٍ كثيرة فيها بُيِّن ثمار التوحيد ومحاسنه العظيمة، وآثاره على أهله في الدنيا والآخرة.

قال: (**وأَنَّهُ الدينُ الوحيدُ الواجبُ شرعًا وعقلًا وفِطْرةً**)؛ مثل ما يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة الروم، من الآية: ٣٠-٣٢].

قال: (**وأَنَّهُ الدينُ الوحيدُ الواجبُ شرعًا وعقلًا وفِطْرةً على جميعِ العباد**)؛ أي دل على وجوب التوحيد الشرع، ودل على وجوبه العقل السليم، ودلت على وجوبها الفطر المستقيمة؛ كل ذلك داعٍ إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا بذكر مساوئ الشرك، القرآن فيه آيات كثيرة. (**ويذكرُ مساوئ الشركِ وقُبْحِهِ، واختلالِ عقولِ أصحابِهِ، بعدَ اختلالِ أديانهم، وتقليبِ أفئدتهمْ، وكونهم في شكٍّ وأمرٍ مَريج**)؛ فهذا أيضًا من الطرائق التي قرر فيها التوحيد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيَّن في آياتٍ كثيرة قُبح الشرك، وقبُح ما عليه أهله، وتفاهة عقولهم، وخسة عقولهم، وهذا في القرآن كثير.

اقرأ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٢٥]؛ أي خسةٍ وسفاهةٍ وحماقةٍ في العقل أن يدعوا بعلًا ويدع أحسن الخالقين. ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [سورة الصافات، من الآية:١٢٥-١٢٦]؛ أي خسةٍ وقبحٍ في العقول أعظم من هذا؟! فالقرآن فيه من هذا شيءٌ كثير.

قال: (**وتارةً يدعو إليهِ بذكرِ ما رتَّبَ عليهِ مِنَ الجزاءِ الحَسنْ في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدُّورِ الثلاث**)؛ يعني في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، كما قال الله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [سورة الانفطار، من الآية:١٣-١٤]، قال أهل العلم: أي في دورهم الثلاثة: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [سورة النحل، من الآية:٩٧]؛ أي موحِّد مخلص لله. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قال: (**وما رُتِّبَ على ضِدِّهِ من العقوباتِ العاجلة والآجلة**)؛ وهذا أيضًا موجود في آيات كثيرة في القرآن العقوبات التي أعدها للمشركين، كقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [سورة الحج، من الآية:٣١]، وأيضًا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [سورة النساء، من الآية:٤٨]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ [سورة فاطر، من الآية:٣٦-٣٧]، المراد بالظالمين أي المشركين. ﴿فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فالقرآن ملئ بالآيات التي تُبين قُبح الشرك، وعواقب أهله في الدنيا والآخرة وما أحله بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من النكال في الدنيا والآخرة.

قال: (**وما رُتِّبَ على ضِدِّهِ من العقوباتِ العاجلة والآجلة، وكيفَ كانت عواقبُهم أسوأُ العواقبِ وشرِّها**)؛ أي في الدنيا والآخرة.

ثم لخَّص ذلك بقوله: (**وبالجملة: فكلُّ خيرٍ عاجلٍ وآجل؛ فإنَّه مِنْ ثمراتِ التوحيد، وكلُّ شرٍّ عاجلٍ وآجل؛ فإنَّه مِنْ ثمراتِ ضِدِّهِ، والله أعلم**)؛ وهنا أنبه فيما يتعلق بهذا الدرس، وأيضًا ما يتعلق بالدروس القادمة حتى تكمل لنا هذه الفائدة وتتم.

اليوم على سبيل المثال أخذنا هذه الأنواع من البراهين، والكل -ولله الحمد- في هذه الأيام يقرأ القرآن قراءةً كثيرة، يقرأ القرآن قراءة يعني يعطي القرآن نصيبًا وافرًا من وقته، فلنحاول أثناء القراءة أن ننظر أمثلة هذه التقريرات للتوحيد في آي القرآن الكريم، فنقرأ الطريقة أن تقرأ هذه الصفحة التي قرأناها مرات عديدة لتكن عشر أو عشرين حتى تستحضر هذه الطرائق، ثم تقرأ القرآن وأنت تقرأ القرآن تنظر في طريقة القرآن في تقرير التوحيد من خلال قراءتك لآي القرآن الكريم.

ولهذا أنت وتقرأ ستجد ترابط بين ما تقرأه في القرآن وبين ما عرفته من هذه القاعدة العظيمة التي هي طريقة القرآن في تقرير التوحيد.

وهذه الطريقة نافعة جدًا في تدبر القرآن، وإذا اعتنيت بهذا الفصل بالذات الذي أخذناه اليوم واعتنيت بتدبر الآيات المتعلقة به؛ فقد فهمت بإذن الله أعظم شيءٍ في القرآن، وعرفت أهم شيءٍ في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ألا وهو توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونكتفي بهذا القدر. والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على رسول الله.